حياة شارع

تحدثنا في الحلقة السابقة عن بدايات شارع الكفاح وتأريخه والانتفاضات التي حدثت فيه، وتناولنا محلة (قهوة شكر)، فضلاً عن فضوة عرب في محلة باب الشيخ، التي لم نعطها حقّها في الذكر، لما لها من تاريخ متخم بالأحداث والشخصيات التي تستحق الفخر والتدوين، وذكرنا أن الشارع سمّي في بدايته بشارع الملك غازي، ثم تحوّل إلى شارع الكفاح مع قيام ثورة ١٩٥٨، لكنه في عهد صدام وبالتحديد أثناء غزوه الكويت وموقف المملكة الأردنية المآزر له أعاد تسميته الأولى شارع الملك غازي، لكن مع ذلك تبقى تسميته الشائعة بين الأوساط الشعبية وحتى الحكومية هو شارع الكفاح، وإذا كانت ثمة تسمية جديدة له وتليق بوصفه، فنسمّيه الشارع المهمل! لما تعيشه محلاته من غياب لأبسط الخدمات الإنسانية.

((الحلقة الثانية))

غياب الخدمات في كل شيء

شارع الكفاح مقرّ تكايا الطريقة القادريّة وشيوخها

مطبخ الخيرات بديلاً عن الحكومة لإطعام العوائل المتعفّفة

إضراب الطلبة عام ١٩٥٦ يحرق مركز باب الشيخ

□ بغداد/ يوسف المحمّداوي
□ عدسة/ أدهم يوسف

خيمة الحرس القومي

يقول المواطن عدنان علي حسين العكيلي مواليد ١٩٣٢ ومن أهالي باب الشيخ: إن منطقة الفناهرة كانت عبارة عن مزرعة إلى صاحبتها الحاجة نمشة، وهي جدّة والده، ثم تحولت مع مرور الزمن تلك المزرعة إلى دور سكنية لعوائل امتهنت صناعة وبيع مكانس الخوص، وخرج من الفناهرة المطرب الستيني الراحل عبد الجبار الحكيم، وعن ذكرياته في المنطقة التي ولد فيها يقول العكيلي: كنت أحد لاعبي فريق التاج عام ١٩٥١، حيث كنت انتمي للحزب الشيوعي العراقي في تلك الفترة، وكان مسؤوله فاضل جمعة الذي اعتقل في نكرة السلمان، وأحد أولاد فاضل كما يتذكر عدنان قد قتل أثناء التظاهرات من قبل الشرطي خورشيد.

وروى لنا أن الحرس القومي كان ينصب خيمته في بداية الشارع، وهناك يمارس دوره التعذيبي ضد الشيوعيين والوطنيين بصورة عامة.

وشهدت باب الشيخ، فضلا عن انتفاضة ١٩٥٢ إضراب الطلبة احتجاجاً على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر،حيث قام الطلبة بحرق مركز باب الشيخ ومطاردة شرطة العهد الملكي.

لا وجود للطائفية هناك

في مسح ميداني أجرته عضو مجلس النواب سامية عزيز محمد، تبيّن أن المناطق الموجودة في شارع الكفاح توقف فيها التقدم التقني والعمراني والصرف الصحي، ومدّ شبكات الكهرباء والاتصالات، منذ قرابة نصف قرن، وأن ٩٥٪من بيوتها يعود بناؤها إلى عام ١٩٤٠، وأحدثها تم بناؤه عام ١٩٥٠، ويسكن المنطقة كما يقول الحاج أبو عثمان: العرب، والكرد، والتركمان والمسيح، وباب الشيخ والمناطق المحيطة به لم تشهد أي احتقانات طائفية، على الرغم من كونها مسكونة من قبل السنّة والشيعة على حد سواء.

يقول محمد جبارة وهو من سكنة باب الشيخ، إن هناك العديد من المدارس القديمة في المنطقة مثل الإحسان الابتدائية وكذلك المشاهدة والاسكلة مقابل مقبرة الغزالي، مضيفا: إن لأغلب مناطق بغداد هناك (أشقياء) ومن أشقياء باب الشيخ المرحومان: محمود طبانه، وسلمان جبر، وكذلك عبد الستار عزيز كريم الملقّب (ستار حبّة). وكان واجبهم الدفاع عن المنطقة ونصرة المظلوم.

أمانة العاصمة وساحة العوينة

فيما يقول المواطن سامي عباس الجبوري: إن مقر أمانة العاصمة الحالي كان في السابق ملجأ الفرق الرياضية، وكان يعرف بساحة العوينة، وكذلك بساحة علي التي كان يديرها شخص يدعى (علي الأعور)، ومن الفرق المشهورة آنذاك، اتحاد فيوري، اتحاد الطليعة، العاصمة، أنصار الشيخلية، فريق فضوة عرب، لذا تجد المنطقة منجماً يرفد الفرق والمنتخبات العراقية باللاعبين المتميزين.

أينما وليت وجهك تشم رائحة الوطن، وعطر التاريخ، بين الأزقة حكايا لأطفال أصبحوا شيوخاً، وفتيات أصبحن عجائز رددت مع نفسي وأنا أسير هناك ما قاله الشاعر نوفل الحمداني في قصيدته خواطر عبر مسافات قاحلة:

سلامٌ على وطن من حنين
رسمت زواياه في قلقي
سلامٌ على وطن مثخن بالحروب
أعلّقه وردة من أسى على مفرقي
سلامٌ عليك أيا شمس عمري
التي باعدتها الليالي ألا فأشرقي.

مطبخ الخيرات القادري

منعونا من دخول مرقد وجامع الشيخ عبد القادر إلا بورقة من الوقف القادري، لأنه لا يجوز تصوير المرقد من الداخل إلا بإذن من الوقف، وبالفعل توجهنا إلى هناك حيث استقبلنا الموظفون بكل مودّة ومحبّة، ولكن ما تفاجأت به هو مطبخ الخيرات، حيث يقف على شباك المطبخ طابوران، الأول للنساء والثاني للرجال.

لم يدر بخلدي في الحقيقة أن هذا المكان يزق العوائل المتعففة بما يسمى (شورب خانة).

يقول أحد الطباخين وهو موظف تابع للوقف ، انه منذ عشرات السنين والوقف القادري يقوم بتجهيز العوائل المتعففة بالطعام، ففي الأيام الاعتيادية يطبخ ما معدله ٢٠ كيلو تمن مع ٦٠ كيلو لحم غنم، أما في المناسبات، فيقوم بطبخ ١٤ قدراً، كل قدر فيه ٧٠ كيلو لحم، و ٥٠ كيلو رز، وطيلة أيام رمضان يطبخ ٩٠ كيلو لحم، مع ٦٠ كيلو عدس، فضلا عن ثلاث صمونات مع الوجبة..

وجدنا العديد من النساء والأطفال والرجال وقد اخذوا مكانهم في الطابور بانتظار التوزيع، حيث يبدأ فتح قدر الـ (شورب خانة) عند الساعة الوحدة والنصف تماما.

أين أموال مراقد الأئمة؟

لا أخفيكم بان العديد منهم رفض التصوير بل أحدهم قال لي وللمصور. اذهبوا وصوروا المأساة التي يعيشها البلد.. فقلت له وهل هناك أقسى من مشهد هذه المأساة، ونحن نرى عوائل عراقية في وطن الذهب تنتظر طعام الإحسان من هذا الوقف الشريف.أين ذهبت الموازنات الانفجارية؟،هل يتقبل الله حج من ذهبوا إليه من المسؤولين وشعبنا بهذه الصورة من البؤس؟،المصيبة أن اغلبهم يتخذون من الدين لباساً لهم، ولكن أين هم مما يجري؟ ولماذا بقية حضرات اللائمة والأولياء لا تفعل ما يفعله الوقف القادري، مع العلم أن ما يدخل الحضرة القادرية أقل بقليل مما يدخل مراقد الأئمة في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء، ومع ذلك لا تجد مثل هذا المشهد، لماذا؟ نسأل الموكلين على الوقفين الشيعي والسني، أين تذهب أموال مراقد أئمتنا العظام؟ هل سيبقى البيت الشعري الذي قاله حافظ ابراهيم يصور لنا حقيقة ما يجري؟ فعند زيارة الشاعر لمرقد السيد البدوي في طنطا، تفاجأ بكثرة المتسولين عند باب السيد، وكثرة الأموال في حضرة المرقد فقال بيته الشعري المعروف:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف ترزق الأموات

أرملة يتّم الإرهاب أطفالها

نعم إنها الحقيقة يا شاعرنا، أراها اليوم ماثلة أمامي. فتلك أرملة يتّم الإرهاب أطفالها وهي تحمل قدرا وضع فيه الطباخين قوت أطفالها الذين تعلقوا بعباءتها، وهناك شيخ قوست ظهره السنين آثر الأكل في باب المطبخ، بعد أن أرهقه الجوع.. كم من ألم تحتمل؟ كم من دهر تحتاج ليتعافى الوطن؟ صرخت بأبيات من قصيدة (أمير الفصول) للشاعر حيدر عبد الخضر:

كفكف الحزن وأرخى مقله
وتوارى خلف نزف الأسئلة
صوته الماء الذي لا ينطفي
يا له من عاشق ما أنبله
كان يدري انه لم يستطع
أن يرى في كل يوم مهزلة
فتداعى في نشيد الأقحوان
وتشظى في رفيف البسملة
شاكسته الريح ناغته الجهات
وارتوت منه حروب مهملة

مشهد مأساوي لأناس يمتلكون ثروات لا تحصى، ولكنها سرقت من أيديهم أمام الملأ ومن سادة يدعون بأنهم أبناء جلدتهم ولكن هيهات يكونوا كذلك بعد الذي حصل وما سيحصل.

أحد الأطفال طلب من صديقي أدهم أن يصوره وهو يقول ارجو أن يراها المسؤولون في الحكومة ليعرفوا أي طفولة نعيش، وأي حياة نحيا، لم أجد بديلا عن دموعي اسند بها صبري، وما نفعها في ظل تخشب الضمائر واستقتال الجيوب على المال!

تكية أبو خمرة

تركنا العوائل المتعففة وهي تتضرع إلى الله بالدعاء للقائمين على الوقف القادري لما يقدمون من خدمات جليلة لهم. وتوجهنا إلى موضع مقدس في محلة باب الشيخ ألا وهو التكايا التي أصبحت ملاذاً للمرضى ولطلاب الذكر.. وكانت وجهتنا تكية أبو خمرة.

يقول السيد محمد عبد الوهاب إبراهيم سليمان: أبو خمرة الرفاعي الحسيني أول تكية في الإسلام وهي تكية أبي بكر الصيق (رض) وموجودة إلى الآن داخل مسجد الرسول وسميت في حينها بالخوخة وفي زمن الدولتين الإموية والعباسية كانت تسمى بالزاوية، لكن في زمن الدولة العثمانية سميت هذه الأماكن (بالتكية)، والتكية معناها متكئا للعبادة والإرشاد، ويبين شيخ التكية أن أقدم تكية في المنطقة هي تكية (البندنبجي وقد تأسست منذ ثمانية قرون، أما تكيتنا والكلام للشيخ فقد تأسست منذ ثلاثة قرون، وأيضا تكية الشيخ حسن الطيار، وهنالك كانت التكية القادرية المجاورة لأمانة بغداد وقد رفعت هي والقبور التي فيها وتعود لشيوخها أثناء إنشاء جسر السنك عام ١٩٧٧.

منهج التكايا وعملها

وعن منهج التكايا وعملها يقول الشيخ: هو إرشاد الناس من الطريق العثر في هذه الدنيا، وبالتحديد من ذلّ المعصية إلى عز الطاعة، وذلك بالصلاة والاستماع إلى حلقات الذكر، وحقيقة الأمر في منهجهم هو تعليم الناس من محبين إلى مدراء لأركان الدين الإسلامي الحسن، حتى يصل المحب إلى درجة الإحسان، والتي هي عبادة الله وكأنك تراه، فأن لم تكن تراه فانه يراك كما يقول الشيخ، ويحصل من هذه البركة والأنوار.

لاحظنا أثناء تواجدنا في التكية مجيء العديد من العوائل القادمة لزيارة قبر جد موكلي التكية الشيخ محمد أبو خمرة الهندي، المحاط بالماء، ومع ذلك يقول احد أحفاد الشيخ: إن الماء داخل القبر محافظ على نسبته دون زيادة أو نقصان، على الرغم من أن الزائرين يملأون القناني منه لغرض الغسل فيه، إيمانا منهم بطهارة هذا الماء وقدرته على الشفاء.

وهناك أحد الشيوخ يقوم بالقراءة على المرضى الوافدين للتكية من غير طلب أموال، وإنما يترك للمريض حق إعطاء المال من عدمه، وتتلى عليهم بعض الآيات القرآنية.

الضرب بالحراب والسيوف

يقول شيخ التكية: إننا ومنذ ثلاثة قرون نعالج الأمراض التي تستعصى على الأطباء مثل (عرق النسا)، و (الهوى الشرجي) أو ما يسمى باللطمة، والشقيقة، والتلبس، والمس، وأمراض الهوى، والصرع والعقم، وبكاء الأطفال والتوابع السبعة (ونقصد بها أمراض الجن)، وغير ذلك من هذه الأمراض والابتلاءات الربانية التي يتم علاجها ببركة القرآن الكريم وأنفاس الصالحين وعلى رأسهم آل بيت الرسول (ص)، نعم أمراض لا تعد ولا تحصى وأسبابها أيضا لا تعد ولا تحصى،فشعبنا أدمن الأمراض مثل ما أدمن الحروب والدمار والإرهاب حتى باتت الوفاة الطبيعية في العراق من الأمور غير المألوفة، فحق السبق أصبح لكواتم الصوت وشظايا المفخخات.

محمد علي كلاي في التكية

وعن (الدرباشة) والضرب في الحراب أوضح الشيخ: هناك مناصب في أداء الطريقة، فمثلا يوجد المرشد الديني للطريقة الرفاعية أو القادرية أو الشاذلية أو النقشبندية، ولهؤلاء المرشدين خلفاء ونقباء ينوبون عنهم عند الضرورة، ويبين الشيخ: إن الضرب بالحراب والسيوف والدنابيس وغيرها تعد من الأمور الثانوية ولا تعتبر من أولويات المنهج المعتمد في التكية، ولكن هناك حالات تفرضها مناسبات وحالات، منها كما يذكر أن وزير الثقافة والإعلام في عهد صدام لطيف نصيف جاسم أرسل لنا وفدا إعلاميا من فضائيات وصحف أجنبية ضم ١٢ صحفياً وخمس صحفيات ليطلعوا على كيفية أداء الدرباشة وطريقة الضرب.

فما كان من الوفد وأمام أكثر من (١٥٠) رجلاً كانوا يحيون الذكر إلا أن يعلنوا إسلامهم وترديدهم للشهادة في التكية، وقد زارنا أيضا الملاكم محمد علي كلاي عام ١٩٩١ لرؤية ضرب الحراب والسيوف وبعد أن شاهد ذلك قال: إني زرت جميع الدول بما فيها الهند، فلم أجد الحقيقة إلا في هذا المكان الذي زاد إيماني وثقتي بالله عز وجل، وقد زارنا قديما الملك فيصل وكذلك الزعيم عبد الكريم قاسم، وكذلك الرئيس عبد السلام عارف والكثير من القادة والسياسيين.

يؤكد الشيخ: نحن مستعدون لإقامة طقوس الضرب بالحراب والسيوف أمام الوفود الأجنبية بشرط أن تعلن إسلامها بعد رؤية ذلك المشهد، وعن الدعم الذي تحظى به التكايا، قال لا يوجد دعم حكومي لها، محملا الوقفين الشيعي والسني عدم الالتفات إلى هذه الأماكن المقدسة. تركت تكية أبو خمرة، متوجهاً إلى معلم آخر من معالم شارع الكفاح وأنا اردد مع عامر عاصي بعض ندوبه على وجنة الذاكرة:

ولي في لياليك عمر يذوب.. وضيم تقضى..
وضيم أتى، فيا كوخ أمسي.. ويا حفنة التمر.. ملفوفة برغيف الفتى، ويا غربة الشمس بعد المغيب. متى تنتهي كل هذي الـمتى..

■ *وإلى حلقة أخرى من حياة شارع الكفاح*

في تقرير برلماني تبيّن أن المناطق الموجودة في الشارع توقف فيها التقدم التقني والعمراني منذ قرابة نصف قرن وأن ٩٥% من بيوتها يعود بنائها الى عام ١٩٤٠

تصيح القدور معها أين الحكومة؟

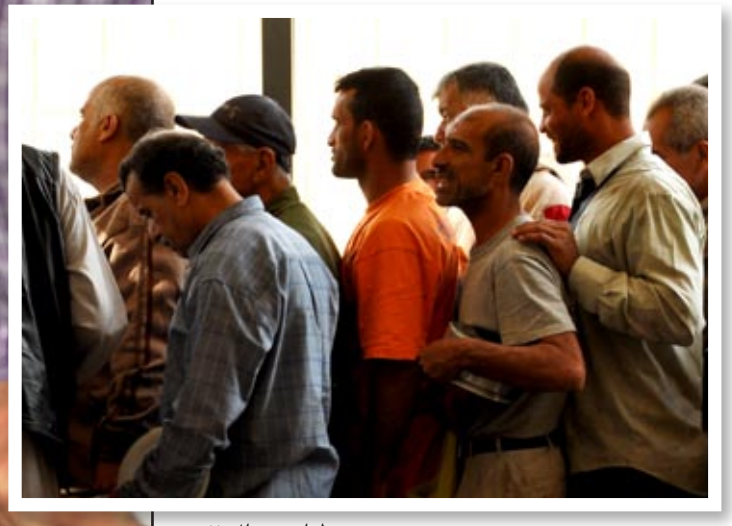

طوابير من المتعففين

العلاج بالآيات القرآنية